

عزرا حزين

ومواقف اناء الزمنية! بقلم محسن الخفاجي

ينظر في أعماق حفرة مع رفاقه مرور دبابات العدو ليتمكن من وضع فبلته في أسفلها وهو خلال الثلاثين دقيقة التي يقضيها منتظرا دبابته في حفرة المعنمة المعزولة تحت الأغصان ، يستعيد في حلم جميل حياته كلها ، في مرور سريع كالحظات القتال ذاتها ، منذ ان كان تلميذاً في مدينة صغيرة تملأ ذهنه القوالب المهترئة حين سمع عن اخبار حرب فلسطين وحين لم يكن له ان يعرف الا القليل عنها ! لكنها تذكره بفارات التناثر على بغداد وحروب الصليبيين وهزيمة اعداء الانسان « وفكرة ان الانسان هو أعظم اختراع شهدته الارض وان ارادته هي اكبر طاقة في تاريخها كله » .

تقول لنا رحلة الخروج الى المواجهة لهذا المهاجر المقاتل دروسا كثيرة . كيف يتحول القتال الى ممارسة يومية ، وكيف تصبح الحرب ممكنة في كل الظروف ، للحفاة والعراة والمتخلفين حضاريا . والذين لا يكادون يجنون قوت يومهم « انني أعيش رجلا . اسلم نفسي للحياة والموت معا ، اعانق بوجودي دورة الحياة والموت ، ذلك ما تفعله الشجرة حيال الضوء والترية والرياح . ما يفعله الطير والنبات والحيوان ، لا يتردد القط البري في الغابة عن مواجهة النمر الكاسر وهو لا يعلم ما نتيجة الصراع .. » ويتكشف لنا ملامح درس آخر يتعلق بالموس التي يضاجعها الرجال ليلا في الغرفة المقابلة ويطلبها ابوها بالثمن نهارا .. « ربما أقتل الماساة ايضا في حياتك يا سنية ، واحرق - مع هذه الارض - جسديك .. »

اذن ما تبقى من الحرية الممكنة هو ان يكون الفداء المحصلة النهائية .

انها صرخة غاضبة لا لانها تضع الكثير من القيم المتعارف عليها على حافة الفضيحة والحساسية والمخرجة ولكن لكونها تؤرخ لمرحلة خطيرة . غير ان الارضية التي منها يجب ان تنمو افكار المقاتلين لا بد ان تكون واضحة وقوية فهي التي خلقت هذا الاحساس داخل الشخص ، وايضا هي التي اتاحت لهم ظروف ممارستهم لفعالهم الانسانية الهادفة على اوسع مدى . فالبطل هنا يعانق دورة الحياة والموت والرفض عبر تجربة الفداء الرائعة مبديا حلمه الشديد على الواقع بتشكله الحاضر . حاصراً طموحه ونفسه في اللحظة الآنية دون سواها . ولا يدافع البطل هنا عن الواقع الممكن بالفعل ، الا لانه في ظل واقع كائن لا تتحقق لديه افعال الحب والخلاص . ان رغبته في الكفاح ، هذه الرغبة العارمة التي تسقط دونها كسل الحواجز ، تظل عاجزة عن تشييد بناء يحظى بالقبول لديه حتى حينما يحس بان زوابع التغيير قد بدأت تكتسح الواقع وانها حتما ستطرح

تطرح قصص هذه المجموعة سؤالاً هاماً : كيف يمكن للعربي رؤية نفسه دون مواربة في مرآة الادب العربي المعاصر ، والى أي حد يمكن لهذا الادب ان يراه ؟

فيما ارى ان هذا السؤال مهم للغاية ، وهو باعتقادي ، اهم الاسئلة التي تشغل بال الاديب العربي المعاصر ، بل انه السؤال الملحاح الذي يظل في ولادة مستمرة ليشكل اعادة نظر في القديم المهترئ نحو التقييم الجديد .

لقد كانت حرب حزيران الشرارة التي احرقته هشيم كل شيء ، وتجربة بالغة الصعوبة والتعقيد فولدت نسغ المقاومة الحقيقية الحارة التي طرحت بدورها ابعادا جديدة للحرب بالنسبة اليها كما انها طرحت بجرأة بالغة العمق والتماسك قيما جديدة لا يمكن اغفالها او تناسيها بأي حال من الاحوال . واذن فان ظل الهزيمة يطفى بثقله فوق كل شيء ، ويستلب كل الدلالات الرجوة التي تملأ الحياة ، وعلى هذا النحو تفقد الحياة أجمل معانيها فيما تنزاح الافئدة ، ويضاف الى ذلك ان الانسان يمتليء برؤى جديدة تنفي كل الاشكال والصيغ فلم تعد الحرب التي يريدها هي تلك القرفة البطيئة القيمة المتعثرة ولم يعد مجديا في ابعاد شيخ القيود الا الفداء ، ذلك الحل الشديد التألق والوضوح ، الفادح الثمن ، وهكذا يكتسب القتال مئسات الدلالات الفكرية والقيم الكبرى لانه يظل وحده الموضوع الذي ينحت ملامح الحاضر الايجابي .

ان سليمان فياض واحد من الذين ولدوا في هذا القرن ونشأوا خلال هذه الحقبة الطويلة مع الهزيمة وكانوا جزءا منها ، وهو في مجموعته القصصية الثالثة : « احزان حزينان » (1) يطرح لنا نموذج الادب الصحي الذي يبشر بولادة عصر جديد آخر .

في القصة الاولى من المجموعة : « الانسان والارض والموت » يتعرض البطل الذي يوشك ان يموت في عملية فدائية بلهجة تتميز بنوع من النقد الذاتي البراق لاضاع حرب عام ١٩٤٨ ، وعلى ضوء هذا المحك الحقيقي تساقط ركامات الواقع امانا ، حين ينقلنا البطل بين الانطلاق والجمود ، وبين التحرر والسقوط داخل الركود والتسلط والقهر ، هذه الاجواء التي تولد ايقاعا متصلا من الحركة .

هو اذن واحد من فدائيي تلك الحرب ، والنماذج التسيي تشارك البطل حياته في هذه التجربة لا تمثل تطلعا الى الحياة بحد ذاتها ، بقدر ما تمثل التطلع الى الحرية بحد ذاتها ، الذي ورثه هذا الجيل والذي أصبح منذ نشوئه عبئا كبيرا . ويقول سليمان فياض عبر هذه القصة ان الرحلة الطويلة بين الولادة والموت يجب ان تخصب بالفداء حتى يمكن ان نثمر كجذور في الارض . هذه الفكرة يقولها البطل الذي

بكل البناء المتهاك من الجذور لكنه يواصل الفداء دون أن يضع في حسابه كون هذا الواقع المعاش معوقا للنمو والتطور أو موازيا له وهو يعني في الوقت نفسه الضرورة لتخطي الحقيقة الراهنة فمأساتهم الحقيقية كاملة في عدم قدرتهم على التواؤم والتمازج مع الواقع .

غير أن خسارة الإبطال لدى سليمان فياض وهزيمتهم المريرة كانت أيدانا بأنبيار ذلك البناء التمداعي المتهاكت ، ولم يكن ذلك إلا نتيجة الظل القاتم الذي فرضه منطق الحرب في ظل الخيانة . أن الإبطال يواجه بمرارة الواقع منذ اللحظة الأولى التي يهيم فيها بالحديث مع رفيقه السائق :

« - لماذا وافقنا على الهدنة ؟ .. كنا قرييين من تل أبيب .. »

أجابني وعيناه على الطريق :

- الخيانة .

قلت :

- لا أحسب أن هناك إنسانا يخون وطنه

قال وبداه على عجلة القيادة وعيناه على وجهي :

- من خان وطنه بتسليح الجيش بالأسلحة الفاسدة يقبل الخيانة مرة أخرى ... »

لقد أصبح هذا النموذج نتيجة لذلك في إطار القضية لأن وعيه يتطلب منه مواجهة حارة وصادقة لفض أبعاد الواقع . أنه يتعدى لفجيسة عام 1948 جاعلا منها المحور لكل انطلاقاته واستقصاءاته التي يستحيل صدها . أن الصرخة التي تضمنتها القصة في النهاية شيء يقرب من الإعجاز ، يقول البطل عن لحظة احتضاره الأخير بأكثر الأبيات شاعرية وكثافة لتصل الى أضواء معنى عميق شامل على الموت . فالوقت ليس انتهاء ، انه هنا الحياة بكل عمقها وجدتها : « بالليل الساطع ، والبرودة المرعبة . أسناني تصطك . وهج الشمس يسري باردا في عظامي . رصاص رجالنا يحاصر الهاربين من دباباتهم . يخفق الصراخ الزاعق المحموم . بعضنا من عطايكم القومي . سوف تتماقنون أيها الرفاق . سوف تجيئون . سوف تدرؤوني بالبطاطين . دعوني أولا أغف لانام . وحييا كنت أو ميتا ، فاسكبوا في فمي ليئا وملحا . ظمأء قلبي ، وجافة شفتائي . لحظة يا رفاق . ماذا قال عطية ؟

أجل . أجل .

من التراب جئنا . وإلى التراب نعود . »

فالذا كانت قصة « الإنسان والارض والموت » تبرز قضية الارتباط وبنات العلاقات فان قصة « أحزان حزينان » تتناول هزيمة البطل « عربي » البررة وفقدانه لسامية في حرب يونيو .. لقد اضطربنا لحظة المواجهة وفقدنا الاستقامة وكان الزمن يفصلنا أكثر فأكثر عن لحظة امتزاجنا بالصدق ، وخلافا لكثير من الشخصيات التي يخلقها سليمان فياض تحت ظل هزيمة حزينان الضاربة المريرة ، يصحو البطل في « أحزان حزينان » على الذكرى المنبثقة لأثار الهزيمة ، وبه رغبة حادة لرؤية ظل الهزيمة يخسر عن تكوين النسيج الحسي للأحداث الكبيرة التي يعيشها الجيل بينما كان عليه أن يظل راقدا ليموت في برود داخل البيوت المفلتة .

تبدأ القصة من اللحظة التي تهاجم فيها الذكريات الماضية لحرب يونيو لتعمق هذه اللحظة الشعورية مؤكدة مرارة الانسحاب عبر رحلة العودة المريرة .

أذن فالإنسان - الفرد ، لا يمكنه أن يتملص من هذا الاستشراف الضاري ليحتر أحلامه الذاتية العابرة أو ليحلو له أن يبحث عن مواقع لخطاه وسط الهدوء ، وحتى للذين فقدوا القدرة على مواصلة الحرب . لقد انهال الركام على كل شيء وانتشرت رائحة الاحتراق المروع .

وتمثل رؤية البطل في « أحزان حزينان » انعكاسا صحيا لتلك الصعوبة السريعة بعد الهزيمة فلا يمكنه وهو المقعد أن يتخلى عن وطأة الأحداث الراحفة التي تلقي بظلمها على كل ما حولها « حق النصر لا

اطمع فيه . أريد فقط حربا مشرفة . حتى ولو استمرت الى آخر الدنيا » . ويخاطب امه قائلا : « الحرب سنتنتهي يوما يا أمي . يوما سيعم السلام العالم . هذا ما نلحم به وما نريده . سوف يحدث يوما يا أمي ، لكن الطريق اليه صعب ، مليء بالدموع ، والدماء ، والسيقان الضائعة ، والشهداء ، ومن يصابون بالجنون » . وحتى قسم الثأر يكتسب قيمة مميزة « جميل أنت أيها القسم ، حين تصبح فلاحيا وخالدا . قبل ذلك ، يا قسمنا ، لست سوى وعد أراة حائلة ، لا يدري أحد مدى صلابتها . خذ معك أيها القسم صلابة قلبي ، وعق حزني ، وساقبي المقطوعتين ، وحياة الشهداء . ومأساة المطرودين المشردين ، من أرضهم العطشى الى الدماء الحرة ، وسوف ترى ، أيها القسم ، أي حقيقة ستكون » .

فما الذي يمكن أن تفعله قتامة الهزيمة لهموم « جندي فقد ساقبه في المعركة ، فانزوى في بيته بعد الأيام في انتظار أن يعيد الشعب أرضه المفتتة .. انه يتسلى بصنع قطع سلاح من الخشب ، يتذكر وقائع الفاجعة في سيناء ، يحترق غضبا وشوقا الى النصر .. كانه رمز لشعب مكبل محروم من فرصة الدفاع عن نفسه واستعادة أرضه » (٢) .

أذن تشكل الهزيمة العلامة على الانفلاق والحدودية ، وفي تعاقب القصص وأكامل بعضها البعض الآخر . ولكن البطل يظل بانتظار أن يأتي الواقع بوجهه الآخر كما يتمثله هو ، فيما هو يتمثل صورة لا أيام الحرب التي تثار امامه إذ أتاحت له أن يحسن فهم القديم وان يزداد ابتعادا عن السقوط في هوته وان يحسن فهم نفسه كما أتاحت له أن يرى كل شيء في ضوء جديد . انه يتكلم بصوت السحوقين من أعماق الشعب محملا اياه بملايين الاصوات العذبة التي ترفع مصير كل فرد منا الى مستوى مصير الإنسانية واذا ذلك تضمير وحدة الفرد في عرق من الإنسانية كلها حين يصير الواقع اليومي الفاسد عتبة الدخول الى واقعه الممكن ويستحيل واقعه اليومي لحظة السقوط الراحفة المليئة بالتوترات . أضيف الى هذا كله انه يريد ان يقيم شيئا جديدا يختلف عن تلك الأشياء التي عهدا من قبل .

في قصة (الفضب) يكتشف البطل وهو واحد من الذين تم لهم الاصطدام بلحظة المواجهة الشرسة ان خياره هو بين ان يكون إنسانا او يتحول الى كتلة جامدة ، ذلك لانه يخوض معركة التحرر مع القوالب الجامدة السلفية في الفكر والحياة معا ، هذه القوالب التي تتحول - بشكل او باخر - الى حواجز ودعائم ثقيلة تعزله عن حركة التاريخ ، وعن التجدد والتغيير ، وتبقيه في ابدية الانفلاق : (وفكر انه الآن يرجم لانه غاضب) . وإن كان بطل (الفضب) محاصرا بملاحم الهزيمة كغيره من أبطال سليمان فياض فان الإنسان إذ يرفض حياة التقليد والرجعة لا يملك الا ان يفض أرويتها ويعربها بحيث تبدو على حقيقتها ، لكي يقدم رؤيا جديدة تفتح كوى جديدة عن تجربة انسانية رائدة . انها تجربة تستشف ملامح الواقع فيما هي تحتضن الواقع لتمثل علامة مهمة على الاصاله والتغير واصادة شديدة للدروب التي تسير بنا في عتمة الحاضر . ان البطل محاصر بما حوله من قيم موروثية وهو لا يتحرر بعد من الداخل بخلق اشكال وصيغ جديدة ونامية لحياة آخذة بالنمو والارتقاء والتجدد .

قصة (الفضب) تطرح منظرا لقيم المجتمع العربي من خلال استعراض حادثة شديدة البساطة : في اللحظة التي يدرك فيها البطل انه غاضب بسبب من قهره المتزايد مقتنعا بان المواجهة المباشرة هي التعبير الاساسي عن الصدق ، فيقرر بان يتدخل وحتى عندما يتعب فان شيئا من الصورة لا يتغير إذ انه يعرف ان عليه لكي يكون اكثر رسوخا ، ان الصمت يعني قبول المساومة على حريته طوعا واختيارا وانه بذلك يمهّد الطريق لمن يحتقر وجوده ويرفضه من الجذور . هنا تصبح المواجهة حاجة ماسة وملحة تزيد من قدرة المتلقي على استيعاب حدود الازمنة ، واحتواء الواقع ، وادراك ابعاد المأساة

والإبماء له بان السكون في مجرى الأحداث ليس سكونا فسي الواقع اليومي . وانما هو سكون في قدرته على الاستقبال ووعيه. اذن فالبطل هنا يتعرف على مكانته ومسؤوليته بعد ان يصاب عالمه بالجفاف والعقم .

ليس ثوريا اذن ، من لا يدخل العالم وغايته تغييره ، فكما ينسلخ الانسان من ذاته ، لكي يجد ذاته كذلك يتم استقطاب اكثر اشكال الواقع الممكن نضجا ، فالثوري هو الراض لجمود العالم ، لا يستطيع الا ان يرفضه ، الا ان يغير علاقاته وحين لا يتم له ذلك يكون (قاصرا) اذ ان مهمة التغيير تظل قابضة في اساس وجوده ، لانه المنفرس في اعماق الحياة من أجل إعادة تركيبها ، ان يتخطى خطوطها الهمة ويخلق لها الخطوط الجديدة .

بطل (الفضب) ينسى اسمه لحظة اشتراكه في المظاهرة ويحس بالخوف فلا يرمي الحراس بالاحجار ويظل يراقب كيف تنفض المظاهرة ، لكنه يظل يبحث عن اسمه الذي نسيه فجأة ثم « اخذ يقذف كل ما حوله : المارة ، وزجاج السيارات ونوافذ الترام ، ومصابيح الشارع الفلورسنت ، والشرفة التي سقط منها الرجل برصاصة طائشة وامرأة حاملا ، وفنأة تمضغ لبنانة . وراح الكل يجري بعيدا . هدات ضجعة الآلات التي تسيير ، وارتفعت اصوات ادمية حارة .» هكذا تكسب الشخصيات لديه بعدها الواقعي التاريخي كذلك التركيز على هوم جيلنا والتعبير عنها بكثافة اذ ان (على الفن ان يمتلك القدرة على تغيير الحياة . والا فقد الفن هدفة) وقصة (الفضب) استطاعت ان تحمل فهما عميقا للموضوع الذي تتناوله . صحيح ان فياض يدين عالما فاسدا لكنه لا ينسى في غمرة هذا التأكيد ان يدين الموقف الفردي ايضا « وعندما همد ، وتفتت كومة الاحجار ، جلس على الرصيف ، وحاول ان يتذكر اسمه ، ودائرة الليل والاقدام تضيق من حوله ، وخيط من الدماء يسيل من جرح غائر في جبينه » فالبطل هنا برغم رؤيته للعالم على انه مجموعة من المردات والوقائع الجزئية التي تشكل الاعداد فهو لا ينظر الى الاخرين على انهم مجموعة من « اللوات » كل منها معزول عن الآخر ، ولكن باعتبار انهم مجموعة من « الموضوعات » تعيش ضمن عالم موضوعي وحين تلتقي الشائبة بين تلك الذات والموضوع يعل محلها نسج محكم من العلاقات الديالكتيكية التي تؤلف عناصر نسج الحياة المواردة .

واذا كانت فكرة الانتظار البطولي عبر الرحلة الطويلة بين الواقع الانساني والوجود الخارجى هي المنطق الفكري عند هذا القاص ، فهي المنطق الحقيقي الذي يقودنا بالضرورة الى ملمح هام من ملامح ادب المقاومة . ان المقاومة في الادب - كما يقول الاستاذ صبري حافظ - موقف نقدي عميق من كل الاوضاع السياسية والحضارية والاجتماعية التي تساهم في تشويه الانسان او تحد من قدراته وامكانياته ، قادرة على اضاءة العالم امامه ومساعدته على فھر كل ما فيه من مثالب وعقبات . كما انه يعنى فھر الصمت والخوف والهزيمة والضياع والتخبط من خطى هذا الجيل عبر ملاحظات راسخة .

ان مسؤولية القاص ان يحملنا الى رؤية جديدة لافاق الحياة او الواقع الانساني عبر الشريحة الحيائية والنماذج البشرية التي يتناولها ولن يمكننا ان نتناسى هذه الموجة الصارخة من (ادب المقاومة !!) الذي يتضمن في جوهره دعوة رخيصة لتحويل الشخصيات الانسانية الى هياكل فارغة او معادلات تجريدية . . كما انهم برغم تلك العثرات والمهاوي لا ترصد الظواهر بدقة كما تحقق اهتمامها بالاملاح المتناهية الصغر ، ذلك لانها قد تسعى الى التحويل والتركيز على الموت ، الوجه الراءف للحياة دون اعادة النظر لاي من جوانب الحياة الحية المضيئة ، فتتقدم انعكاسا مشوشا وسريعا عن الواقع بنوع من فهم خاطيء وقاصر للتعبير عن حالة او جانب من الواقع تصيرا مباشرا ، فيقدم شهادة غير صادقة لو وضع معين ، ولذلك فان الرؤية هنا ضيقة ومحدودة من حيث هي غير خالقة لصورة جديدة .

فاذا كان على الكاتب ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظة الحضارية المليئة بالفضب والتزق كما يقول صبري حافظ ، فانه يهمننا على وجه التخصص شهادة هذه الاصوات المتباعدة زمانيا ومكانيا ، فهي تنقل لنا وصفا دقيقا لما كان يحدث ويحدث الآن ، يدلي به غالبا شاهد سقط بين وجوه اخرى ، انها باختصار ، شهادة مروعة لذلك الجانب المذهل من حياة الرجال الذين عزلوا عن حريهم فبقوا متمسكين بالكلمات والذهول .

ولكن هذا الادب لم يتحقق بعد بكامل ملامحه شانه في ذلك شان الانسان الباحث عن مواقفه الحاضرة ، لكنه يظل نسفا نقيا ينتج لنا ان نستشف الكثير من العمق والعدنية ، اذ ان الادب الحقيقي على حد تعبير جان بيارفاني هو القدرة على القول بابة علامات يأتي واقعا نحونا . ان الادب الحقيقي هو الذي ينبع من التجربة المحلية ويربطها بالبعد الانساني الرحب ، الاكثر شموليا لكي تكسب وجهها الانساني المضيء ، عبر وجهها المحلي والقومي كما يقول الاستاذ محمد الجزائري . اذ ان الدلالة الهادفة هي التي تعطي لنا التفاؤل المشرق (الا ان ضراوة الهزيمة بلغت حدا لا يتيح الرؤية النقية من اوشابها . كانت الامور قبل الخامس من يونيو غاية في الوضوح ، بدرجات متفاوتة ومن زوايا متعددة باختلاف الاجيال وتنوع وجهات النظر . ولكن الخامس من يونيو قد اسدل ستارا كثيفا على الابصار وغشاة ثقيلة على جميع الرؤى) (٢) .

الشخصيات في (احزان حزينان) لا تحدها خطوة عامة عريضة كما انها لا تتميز بعضا عن البعض الاخر بصفات نهائية . واذن فمحلية هذه القصص لا تأتي من مكان حدوثها ولا من الشخصيات وما يصدر عنهم فقط ، ولا من الاحداث التي تتميز بها بيئة عن اخرى ، وانما بهذا الوصف المتقن لاحداث المتاني حد التخطيط ، وبالعرض الواضح القوي المليء بالتشويق . ان المؤلف حين يكون قد قدم لنا الجانب الزمني والجانب الروحي من حياة نماذجه خلال عرضه للبيئة الفوقية والبنية التحتية للمجتمع يجعلنا على المام كامل بشؤونها دون ان يخرج على هدفه الادبي من تقديم انعكاس راق لنماذج انسانية تتحرك ضمن هذه البيئة وترتبط بها بوشائج متينة .

واذا كانت هذه العلاقة بين الانسان والارض تأتي مرة عينية ، مفاجئة قاهرة ، ذات صخب ودماء ، فانها في وجهها الاخر تمثل الامل والطمانية والهدوء .

تطرح قصة (الرجل والسلاح) قضية الانسان الذي يمضي حاملا حياته وسلاحه مفتديا لاماله ولحقيقته كائنسان « العالم لم ينته بعد ، ولن ينتهي ابدا طالما هناك مناسا رجال . الشمس ما تزال تشرق . وستشرق غدا مرة ثانية ، وثالثة ورابعة . سنعود نحسن او ابناءنا او احفادنا . رجال سيدفع بهم وادينا دائما الى هضابك وقممك وسهولك يا سيناء . »

خلال الانسحاب يكتشف صلاح انه نسي سلاحه وعساك بدونه ، وحين يحاول العريف ان يقنعه بان ذلك لا يهم امام البنادق الكثيرة التي تظل بحاجة الى ايدي ، يرفض بحدة ويذهب ليعود بسلاحه وهنالك يخر جسده برصاص طائرة تنقض على الوادي الذي يعدو فيه . لقد كشفت هذه العودة القاسية المريرة عن اندفاع حاسم لتصحيح هيق لكل الاخطاء الماضية ولكنها دعوة بنقصها الكثير من الاحكام كما يبدو لنا للوهلة الاولى .

ان هذا لا يعني ان قصة سليمان فياض كانت تحمل كل محتواها الانساني النبيل بشكل اكثر اقناعا وتجوابا مع العصر ولكن لتناسق وحدتها الداخلية ولعطائها المضموني وجدتها وصدقها الفني والفكري بكامل اجزائه ، انها مقنعة ، تقدم الانسان المهزوم هنا (وهذا لا يبرر بانه سينهزم كل عمره) . ان الهزيمة هنا تجيء علامة توميء الى نصر ، ولكنه لم يستطع ان يحقق النصر لان الحياة ذاتها حينذاك وضمن اطارها التاريخي لم تستطع الا ان تقدم الهزيمة والرؤى الواقعية ، لكن هذه الخيبة التي تجيء هنا واقعية ، تكاد تكون مصيرا لا مناص منه ولكنها

طيب في اغناء الوعي بمعنى الهزيمة ومذاقها للتعبير الأمثل عن لحظة ارتقاء الإنسان حين تسقط الأشياء بمقاوماتها وطاقتها أسيرة النار . وهو هنا لا يقدم صورة نقية لبضال الإنسان وعلاقته الحميمة بالأرض بل يقدم الصورة الواقعية العميقة الدلالة والمعنى للإنسان الذي يخوض كل الأحزان من أجل استعادة إنسانيته المفقودة كبداية لا بد منها لتحقيق انتصاره على عالمه فتطرح صدى لفكرة العودة إلى الوطن حيث تسري الحياة فيه بعودة أبنائه .

ان أبطال فياض متشابهون ، وهم يتطلعون مثلنا إلى عالم يسوده الفرح بعيدا عن ركامات القيم المهترئة ، ولكن يسود أغلبهم مقهورين تتضح ملامحهم داخل الشريحة الفنية المكتملة لإبعاد القهر لدى إنسان العصر ، كما انه يركز بشدة على الانطلاق من الأرضية المحلية لأبطاله لاجل رصد أزمة الإنسان في العصر ، لهذا نرى أبطاله يتمشون باستمرار بملامح خاصة للقهر الطبقي كما في بعض أعماله السابقة نذكر منها قصته الرائعة (الفريب) وفيها نجد التمرية لللاقات الصدئة المزيفة والكشف عن الصرخة التي تعني الخوض العنيف في قتال لاجل الأرض والمساهمة في مجابهة التحدي والقسر القاسي ، تبده تلك الرؤية الناضجة للواقع والإنسان الملتزمة لجوانب الصدق الفني والشعوري . وفي القصة « زيارة في الليل » يتعرض فياض لموضوعه الأثير وهو الكشف عن عالم القرية ليقيم عبره طرحا جديدا لإبعاد المقاومة التي تمثل المعاشية على جميع المستويات من خلال الالتصاق وخوض فمسار الأحداث اليومية الشديدة الصفر (٤) .

تطرح قصص (أحزان حزيان) هذه الفكرة الرائعة : ان الهزيمة هي الوحش الذي لا بد للإنسان من ان يتحداه ويصارع عبر الوجدان الجمعي ، ولا يكف عن مصارعتة ما دام يتجذر في أرض الواقع وما دام هناك صراع خفي بين أشد حالات الحياة تألقا وازدهارا ، وكذلك أشد صورها قتامة ، التي يصوغ منها حلمه واشتياقه ، ويلوح لنا بخفة ذلك المعنى الإنساني العميق المخنفي وراء الخوف والشجاعة المتحدية لكسل حزن أو سحر أو موت ، التي تحيا انتظار ضوء الأمل الذي يتجسد عبر حرارة الأشياء من هذا العالم ، عالم التفاصيل الصغيرة حيث يصل الإنسان إلى أقصى حالات القدرة على الخوف التوهج والتعاطف مستمدا قوة جديدة وولادة أخرى من عالم الذكريات . انه قتال لا هوادة فيه مع شروء العالم يكون فيه الإنسان عالما كيف يتمزج الحب بالموت في كل صوت على طريق النضال كامتداد عميق للاحساس بالحياة يتبدد مخلفا احساسا أعمق بالمهانة . ان عليه ان يواجه بحذر صور القسوة والموت والنذر ليؤكد قيمته وقدرته عن طريق الممارسة الواقعية العملية التي تؤدي إلى تغيير جذري في قيمه . انه يريد ان يتجاوز ماضيه ان يحرك جزئيات الواقع ويغيرها ، وهذه الرغبة في الرفض أوسع من ان ننظر إليها من الخارج ، مع ذلك فانه لا يفكر إلا في حياته اليومية كما لو انه يسعى إلى رفضها وانها طريق لا بد من تجاوزه وانحساره لكنسه يدور

لن تفرض - برغم ذلك - اليأس المطلق . انها نظرة متألقة من أجل سماء نقية . ان تجربته - أي البطول - لا تمثل ، فهي جوهرها ، الا مظهرا يصدر عن عاطفته ونفسه والمجموعة الشائكة من خلفياته النفسية والفكرية والحياتية ، وهو اذ يمضي حاملا حياته وسلاحه مفتديا لإماله ولحقيقته كإنسان ، يخسر كبقية أبطال سليمان فياض عبر العنف الذي تطرحه تجربة حرب ضارية ومروعة فإبطال فياض رجال عاشوا هزيمة مرة دون ان يدخلوا معركة حقيقية او يطلقوا رصاصة ، محرومون من الاشتباك ولديهم الرغبة الصادقة للمساهمة مع الآخرين في المعركة والتي تقف دونها حوائل ودون امكانية انضاجها كمساهمة ببناء آلاف العواقب . يضاف إلى ذلك ان مجموعة من المخاوف تنشأ في نفوسهم وهي مخاوف مميزة عن احساس بالمهانة لان الإنسان لم يعد في مواجهة العالم الخارجي الضاري ، كما هو من قبل . أصبح له وجود مستقل له ملامحه الخاصة . مكون في معظمه من الخيبة والإحلام الفامضة والانتظار الواهن الذي تتكون قشرته من قهر فاضح وبحث عن وجه لشمس دافئة ، وهكذا فان البطل الذي يمارس الكشف الاصيل عما هو إنساني وإيجابي وثوري في الواقع فان كلماته تتحول إلى نسيج موقف ثوري متكامل يتمثل في نفاذ النظرة لا يجري هنا أو هناك ، والاحساس البكر بالحياة ونقيضها الموت على هذا النحو أبال إلى العمق والتركيز .

ان عالم البطل في قصص (الإنسان والأرض والموت) و (أحزان حزيان) و (الرجل والسلاح) و (الفضب) يرتقي إلى درجة الرؤية الحضارية لكل القضايا الجوهرية للملاحم الواقع من خلال آفاق ورؤى جديدة ، عالم يتشكل من الفضب والسخط والمرارة والاندحار . انه - على نحو من الانحاء - يتجاوز أخطاء الإنسان العربي من حيث هو النقيض وهو الوجه الآخر المتغير الذي خلقته الهزيمة وهو هنا يعبر كل العوائق التي تحده ليكون ضمن حرارة وعي جديد مسن حركة حياته المتدفقة ، المتجددة في أرضية الماضي ، المتحركة بثبات نحو المستقبل ، الهادفة إلى اغتيال القديم الفاسد كيما يولد الجديد حين يضع الإنسان أحلامه وغضبه في مواجهة عدو . لقد أثبتت تجربة الحرب انها قد فتحت العيون على حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل وانها اكدت عن جدارة فاعلية الرغبة الصادقة في الفداء وانبثاق صحوة الإنسان الذي يبرئ نفسه من أخطائه . الشخصيات في ظل الحاضر رجال يتعلمون كيف يكون القتال حياة يومية . كيف يمكن للإنسان ان يرتفع بالقضايا الفردية حتى تنصهر وتذوب في الكل المتكامل والأكثر شمولا وصدقا وإنسانية ، فنادرة هي القصص التي نجحت في التعبير عن أجواء الهزيمة وباستثناء بعض قصص : (غسان كنفاني) و (محمد أبو العاطي أبو النجا) و (محمد خضير) و (أحمد خلف) و (خضير عبد الأمير) و (زكريا تامر) و (وليد إخلاصي) و (جمال الفيضاني) و (سليمان فياض) و (حيدر حيدر) لا نكاد نعث على أعمال تتناول هذا الجانب بنضج دون ان تقع في هوة المباشرة والخطابة الزاعقة ، ففي الأعمال المرهفة الناضجة ينفي الشخصيات الواقع بهذا الشكل العاجز مؤكداين شرعية التغيير في جوهره : تغيير الواقع وتجاوزه . انما يعني هذا كله عودة لاضاءة تجربة إنسانية يعبر فيها القاص تعبيرا فنيا صادقا وفي بساطة وهدوء بالغ تنكشف لنا الأعماق البعيدة الفائرة للتجربة الإنسانية ضمن نفمة تفاعلية تزهو بمختلف الرؤى الندية .

اما قصتنا (الإنسان والأرض والموت) و (أحزان حزيان) فهما أشد عمقا بكثير باعتبار انهما يصدران عن الشعور العميق الواثق من ان معادلة الحياة والبقاء قد تم تحقيقها بعد استشراف ملامحها وانها قد بدأت حقا بما هي عليه من صلابة وتماسك . اشاعة شحنات قوية من التفاؤل والوعي الإيجابي ، داخل قنامة الوجود اليومي الضاري للقاتلين التي عودتهم من ساحة القتال محملين برائحة الحياة أو الموت ، أو استشهادهم في الأرض ، هذا التجسيد العميق الفائز لكل ما تخلف في أعماقهم من التشوه الضاري . هم رجال يواصلون بداب بالغ قتالا متصلا ضد الموت ، وتحاول القصة ان تقدم صورة للإنسان تسهم بقدر

زهرة من دم

مسرحية في ثلاثة فصول

تأليف الدكتور

سهيل ادريس

منشورات دار الكاتب العربي - القاهرة

هزيمة

تكلت عيناها بلحظة اللقاء
من بعد ما تقابلا
من بعد ما طواهما الفروب في مشارف النهار
ولحظة اللقاء للغريب لحظة انتصار
ما أروع اللقاء للغريب اذ يؤوب
والشوق ما يزال نسمة على طريق
وبسمة على الشفاه لا تبين
دقائق ونعبر الحدود
نعانق الهوى الجريح قبل أن يموت
وقبل أن يلفه السكوت

لكنما الشرطي في الميدان هز منكبيه
وأشعل الإشارة الحمراء
أدار ظهره العريض دونما سبب
وقال كلمته
يا أيها المسافر الغريب كيف عدت
والف عام في الطريق ما تزال الف عام
مجدافك المصقول بالحديد والصدف
انهد وانكسر
والريح هذا العام قاتلة
ونسمة الشمال لا تطاق

لان أبخر الكلام صامته
والحائط المعجوز الف عين
نسيت أنني مضيت دونه بلا يدين
وسار وحده بلا نشيد
وظل كلمة محروقة الحروف
ما قالها المسافر الغريب
يا ويح من يؤوب دون أن يكون في انتظاره حبيب

أنيس احمد البياع

القاهرة

عليه باستمرار دون ان ينخطاه في الوقت الذي لا يتوانى فيه عن اطلاق
صرخته امام بشاعة الحاضر بشكله الراهن .

ان « احزان حزيان » نموذج من الادب الصحي المتفائل ، ولم يكن
هذا التفاؤل والاشراق ضربا من التكرار . لقد انطلقت هذه القصص من
ارض الالتزام الراسخة ، ذلك لانها كشفت عن طريق المواجهة : أعماقه
وابماده . لم تعرف فيها الشخوص العويل والصراخ الزاعق بسل انها
كانت تمارس بعمق ادراكها لدورها ومسؤولياتها وغلب عليها باديء ذي
بدء طابع الخطوة المخلصة في طريق رفض الهزيمة ، ولكن من الضروري
ان يتيح سليمان فياض لهذه النماذج قدرا ملائما من الصدى الفني حين
يتاح لها النجاح في توصيل افكارها ، وما تريد ان تقوله الى القاريء
بطريقة مقنعة . فالقاريء يفقد مع بعض الشخوص اي انفعال كأنهم
مجرد ظلال ، ظلال خفيفة تتحرك في واقع حالم . لكنهم ايضا التجسيد
الحي لعقم هذه الاستقصاءات الفائمة كما برزت عبر هذا الصدام
اليومي الذي نستطيع ان نستخلص منه بوضوح كلي ان هذه النماذج
تمثل النماذج المتقدمة في الحقيقة التي طرح شمسول المفزى وعمق
الدلالة ونزاعها عبر ذلك البعد الرمزي الرائع الذي كشف عن مقدرة
للصبر من الجزئي « الخاص » الى الشامل « العام » .

لقد تحققت في (احزان حزيان) صحوه الالتقاء العظيم بغموض
العلاقات على طريق المسيرة الطويلة لهذا الجيل والاستشراق الخثير
للكثير من الرؤى والايامات ، بالإضافة الى كل تلك التوييمات الخائبة
- عبر الخوف والانتظار - والتي لم تنقذ العديد من الشخوص من برائن
الازمة فشكلت هذه القصص الارهاس المتقدم بتجربة رائدة في القصة
العربية بالفة النضج والبراء (o) .

واذا كان البعض من النقاد يعتقد بان القصة علسى خلاف الشعر.
لا تستطيع ان تقدم مسحا شرسا لابعاد الواقع وانها تظل بحاجة الى
استيعاب لتجربة الحياة عبر الموت واحساس اشد عقلانية واتزان
بالتجربة الانسانية ، فان هذا التقييم يظل قاصرا وبعيدا عن التحقق
امام ما قدمه سليمان فياض حتى انه استطاع ان يرفد القصة العربية
برافد جديد يمثل تيارا متقدما وشديد النضج ، لاننا هنا بازاء قاص
لا يرى الاشياء ملامح لتجارب ذاتية معلقة بمقدار ما تصدر عن رؤى
فكرية ناضجة تنتقل بالمشكلة المعروضة من مرحلة التجربة الجزئية
الخاصة الى اطار التجربة الكلية العامة غير المحدودة .

سليمان فياض قاص يتحمل مسؤوليته بازاء احداث العصر رافضا
موقف الرضوخ والاستسلام . ان غمس مخيلة القاريء برائحة الحرب
واقاماتها لتبلغ اقصى درجات النفاذ والروعة قد تحقق على يدي هذا
الكاتب الموهوب .

محسن الخفاجي

العراق (الناصرية)

الهوامش

- 1 - (احزان حزيان) سليمان فياض - نشر دار الآداب ببيروت
- 1969 .
- 2 - آثار هزيمة حزيان في القصة العربية المعاصرة ، محمد
دكروب - مجلة الآداب عدد اكتوبر 1969 .
- 3 - الادب المصري بعد الخامس من يونيو ، غالي شكري - مجلة
الآداب عدد مايو 1969 .
- 4 - لم نتعرض لقصة (جسر حي) لاعتقادنا بانها في مستوى دون
مستوى قصص المجموعة ، ولكونها تطرح تسجيلا لعملية فدائية نجسد
شبيها لها في قصة قصة (الانسان والارض والموت) .
- 5 - حاولت ان اتجنب قضايا الشكل والسبب في ذلك يرجع الى
انها غير ذات قيمة امام هذا العمل الفني الناضج الذي يؤرخ لمرحلة
هامية يعيها الجيل ويتفاعل مع احداثها .